الطب الشرعي والهمية

بقلم الاستاذ كاظم صعد المحامي

في العدد العاشر من مجلة « البيان » قصة عنوانها « العدل الجائر » للسيد عبد الرزاق العائش يقول في أولها « .. من القضايا التي اخطأ فيها القضاء خطأ فظيعاً وذهبت فيها نفوس بريئة ... ان جعل لتقرير الطب الشرعي اهمية بالغة في الجرائم فاذا كان فيه خطأ كبير أو صغير فانه يسبب شنق احد الابرياء . . . »

واست ادري كيف تمكن الكاتب ان يحكم هذا الحكم على القضاء باعتماده على الطب الشرعي فيقول لقد اخطأ خطأ فظيعاً وذهبت نتيجة هذا الخطأ نفوس بريئة منها القصة التي سردها الكاتب لذلك جئت بكلمتي هذه مبيناً اهمية الطب الشرعي في التحقيق ومكانته .

ان تحقيق الجرائم لم يكن منوطاً بالطبيب الشرعي وانما يرجع اليه في المرحلة الثانية اي عندما يحتاجه المحقق في قضايا معينة فالمكلف بالتحقيق أولا هو المحقق العدلي فعند وصول خبر الحادث الى المحقق عليه ان يذهب حالا الى محل الحادث ومعه ادواته ومساعدوه لمعرفة الواقعة قبل اندثار الجريمة سواء بواسطة الفاعلين او مساعديهم او بواسطة الطبيعة ؛ وقد اوجب عليه القانون ان يستعين بمختلف الوسائل المساعدة الوصول الى معرفة الجاني ومنها استطلاع آراء ارباب الفن والصناعة كالاطباء والاستعانة بهم لتقدير ماهية الفعل واهميته وذلك بغية التوصل الى الحقيقة ، فالمحقق هو الذى يحيط بظروف الجريمة فيجلب كل من له علاقة بها ويلاحظ الزمان والمكان ويحسب لكل صغيرة وكبيرة حسابها الدقيق ؛ وبعد كل هذا يقدم القضية الى الطبيب الشرعي لمعرفة كيفية الوفاة .. كيف مات، وباى واسطة وكيف كانت وضعية الجثة بعد الموت مباشرة وقبله . وكيف كانت وضعية الجاني ، وهل الاصابه بآلة حادة أو طلقة ، فاذا كانت بطلقة فعلى اى مسافة وهل هي طلقة مسدس أو بندقية واى نوع من البنادق أو المسدسات واذا كانت بآلة فبأى نوع من الآلات واذا كان هناك جرح فما هي اهميته وعاقبته وعلامات كل حالة ، ثم هل وقع الموت انتحاراً أووقع من قبل شخص آخر

واذا كانت مسألة انتحار فهل كان المنتحر سليم العقل أبان قيامه بعمله ام طرأ عليه عارض جنوني او غير ذلك، واذا كانت جثة غريق مثلا وجيء بها اليه فعليه ان يحقق فيما اذا كان الموت نتيجة الغرق ام ان شخصاً قتله ثم رماه في الماء لاخفاء معالم الجريمة . الخ

ولهذا اشترط في الطبيب نفسه ان يكون فاهما ذا ضمير حي ووجدان وشرف وان يشعر باهمية الموضوع المكلف به وان لا يحيد عن الطريق المستقيم ويجب ان يكون رأيه معززاً بالادلة والعلل التي تثبت ما يقول :

مما تقدم يتبين لنا ان للطب الشرعى اهمية كبرى في التحقيق الجنائي اذ بواسطته يفرج عن اشخاص متهمين في قضايا كبيرة بمعرفة الحقيقة فمثلاً في الحادثة التي نقلها الكاتب والتي يقول فيها ان اثنين اتهما بقتل رجل مع انه مات بالسكتة القلبية فلو كان الطبيب ماهراً او عارفا القواعد الاولية لقال : ان هذا الشخص مات بالسكتة القلبية وافرج عن الشخصين ولكن غباوة طبيب القصة هي التي أدت بحياة واحد منهما الى الهلاك ومعرفة الطبيب الآخر هي التي انقذت الشخص الثاني وهنا تتضح اهمية الطب العدلي في التحقيق اذ انه هو المرشد للحق والهادى له في القضايا المهمة وغباوة طبيب لا تدل على ان الطب الشرعي ليس له اهمية ويجب ان لا يعتمد عليه وان القضاء اخطأ بالاعتماد على تقرير الطبيب.

ولم يكن الطب الشرعي علم اليوم وانما هو قديم جداً اذ انه وجد مدوناً عنه في شريعة حمورابي الشهيرة ، وفي الالواح الاثنى عشر الرومانية ثم تقدم على يد العرب تقدما محسوساً وظل كذلك الى ان جاء دور الحضارة الاوربية فترعرع ووصل الى ما نحن عليه اليوم .

والآن أود ان اقص للقارئ الكريم قصة حدثت في بغداد وهي واحدة من مآت الحوادث التي تظهر لنا اهمية الطب الشرعي كان احد الحمالين سائراً في شارع الرشيد وهو يحمل بعض الامتعة ؛ وبينما هو يعبر الشارع اذا به يسقط فتدهسه سيارة واذا به ميت فجيء به الى معهد الطب العدلي وبعد اجراء اللازم وجد انه مات بالسكتة القلبية في اثناء عبوره الشارع فقد كان مصابا باحد الامراض الذى اذا ازمن كان من نتائجه ان يقف القلب

قصة

ساعة مع شيطان

كنت لا ازال سابحا في اجواء من الخيال بعيدة في هدأة من الليل البهيم وحيث نسمات السحر الندية تشيع في النفس البهجة والسرور ؛ حين قطع علي سلسلة تفكيري العميق صوت مدوي . اهتزت له جنبات الدار . صورت المدفع يؤذن بالسحر .

وما هو قليل من الوقت حتى رحت استمع الى الضوضاء تنبعث فتعكر صفو السكون والصخب يصك الاسماع .

استيقظ الجميع ؛ وما عتم كل ان انصرف الى ما فرض عليه من عمل . ومضت ساعة كنا بعدها نجتمع الى المائدة فنلتهم الطعام لا عن مسغبة . ولكن استعداداً ليوم شديدة وطأته طويلة ساعاته. لا فح هجيره .. يوم ينضوي تحت بنده بنو الانسان ولا أمر الا لله .. هو يوم من ايام شهر رمضان .

ورفعت المائدة فقدمت اقداح الشاى الساخن واحتسينا منها قدر ما شئنا في جو كله مرح وسرور . دعابة اثر دعابة . ونادرة بعد اخرى . حتى اذا ما قضت الاجساد وطرها كانت الارواح ترف سغبة نهمه ، في انتظار الفجر الضاحك يشق السماء فيبدد الظلام لتأدية فريضة الصبح .

وعدت الى سريرى فاستلقيت عليه وفي النفس راحة وهدوء يشع عليها سنى من ايمان . ويملؤها نور من هدي ، وظللت ارتقب الفجر — كما اعتدت — لأنهم بالصلوة التي تبعث في النفس ابهج الاحاسيس وارق المشاعر .

حدثت نفسي طويلا بما عن لي من حديث . واحييت فيها الآمال والاماني بما في الدار الاخرى من نعيم خالد وسعادة دائمة ولكن ثمة شعوراً لا ادرى مأتاه يبعثني على ان اتحدى وساوس الشيطان فافعل . وانى للشيطان ان يلج نفساً عامرة بالتقى والصلاح؟ أجل فما للشيطان على نفسي من سبيل .

ولكن آه . فما هذا يا إلهي ؟. هو ذا شبح مرعب مخيف يقترب نحوي بخطى وئيدة يا للهول . انه حقيقة ثابتة وليس بشبح او خيال . فماذا اعمل يارب ؟ . ! ورحت اتمتم باوراد ودعوات كنت احفظها عن ظهر قلب علها ان تعيد لي جأشي ولكن صدرى اخذ يعلو ويهبط بسرعة وقلبي يدق باقصى سرعة . حتى خلته يقفز بعيداً وفجأة احسست كانه كف عن الوجيب . وبقيت انتظر انقضاض هذا العملاق علي لينشب في اظافره . . ولكن شيئاً من هذا لم يحدث فقد ظل يحملق في دقائق حسبتها شهوراً . وعلى حين غرة رأيته يبتسم فتفتر شفتاه الغليظتان عن اسنان وحشية . زادتني رهبة وفرقا . . وفتح فاه كمن يهم ان يتكلم . فخلت ان زمجرة الرعد دون صوته قوة وشدة .

ونطق اخيراً ولكن بصوت عادي حاول ان يخلله برقة قال:

— هيه يا صديقي ، اظنني قد ارعبتك بزيارتي الغير منتظرة ولكنني التمس منك الصفح وارجو الغفران . واجتهدت ان اصفعه ، او على الاقل ان اطرده ولكن بدون جدوى فقد كانت يداي جامدتين كالثلج واحتبست الكلمات في فمي ؛ ولكنه عاد يقول :

— اعود يا سيدي فاسئل منك الصفح على قحتي ولتطب نفسك وليعد اليك رشدك فما احسبك تراني وحشاً بعد هذا . وسكت

وقد وقف في تلك اللحظة فسقط ميتاً بعد موتة نتيجة السكتة القلبية هذه ؛ ومن اراد الاطلاع على اكثر من هذا فما عليه إلا ان يذهب الى معهد الطب العدلي ليشاهد الحوادث اليومية العجيبة العديدة ويعرف اهمية هذا العلم في مساعدة المحقق وارشاده الى طريق الصواب والحق .

بقيت نقطة واحدة يجمل بي بيانها وهي معرفة ما هية هذه المهمة ؟ (١) اقول لقد اختلف رجال القانون في ماهية المهمة الموكولة الى الطبيب الشرعي فبعضهم نزله منزلة الشاهد وجعله البعض الآخر عوناً للمحقق على اظهار الحقيقة وقد ايد الرأي الثاني اغلبهم والاختلاف بين الشاهد والمحقق كبير ليس هذا محل بيانه .

ظاظم صفي

(١) الطب الشرعي تأليف الدكتور فؤاد غصن .